

طبيعة الحلم والنكته من خلال لغة رمزية

أحمد الشايب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the Arts and Humanities Commons, and the Psychology Commons

طبيعة الحلم والنكته من خلال لغة رمزية

احمد الشايب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير

شغلت مسألة تفسير الأحلام وتأويلها الفكر الإنساني منذ أقدم العصور، مما حدا برواد هذا الفكر إلى إبداء آرائهم حولها والاسهام في توضيحها في مشروعاتهم الفكرية والفلسفية. ومن مظاهر هذا الانشغال ما نجده في القرآن الكريم وفي الكتاب المقدس حول قصة يوسف، وما وصل إلينا من آثار القدماء في الحضارات الهندية والصينية والعربية، مثل كتاب ابن سيرين وغيره. ولا أدل على جدية البحث في موضوع الأحلام وخطورته من أن المعلم الأول أرسطو صنف مؤلفين في هذا الموضوع، كما انشأ أبو الطب هيبوقراط فصلا عن العلاقة بين الأحلام والأمراض في كتابه الذي وصل إلينا.

ورغم وجاهة بحوث القدماء ونفاذ بصيرتهم فقد ظل موضوع الأحلام أمرا مستغلقا عسيرا متمنعا على الفهم العلمي الصحيح قرونا عديدة، إلى أن نشر سگموند فرويد كتابه «تفسير الأحلام» سنة 1900، هذا الكتاب الفذ الذي يعتبر فتحا جديدا في هذا المجال، ومنعظفا حاسما في بحوث علم النفس والطب النفسي. يقول فرويد عن كتابه هذا «إنه حتى فيما أرى اليوم يشمل أتمن الكشوف التي شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبي، فمثل هذا الحدس لا يأتي العمر مرتين»⁽¹⁾.

لقد اشتمل هذا الكتاب على الأسس التي قامت عليها دراساته اللاحقة مثل كتاب «علم النفس المرضي في الحياة اليومية» و«الطوطم والتابو» الذي يعتبر أساس الانتروبولوجيا

الحديثة، و«ثلاث مقالات في نظرية الجنس» الذي يذهب فيه إلى أن الحياة الجنسية لا تبدأ - كما هو شائع - عند مرحلة النضج الفزيولوجي في البلوغ، بل إن لها صورا مميزة أخرى يمكن للباحث النزيه أن يتبينها في مراحل الطفولة المختلفة»⁽²⁾ كما عالج فيه العلاقة بين اضطرابات النمو النفسي الجنسي في مرحلة الطفولة والانحرافات النفسية لدى الراشد ومن كتبه التي يتعذر فهمها دون الرجوع إلى تفسير الأحلام كتاب «النكتة وعلاقتها بالاشعور» الذي سنستضيء به في القسم الثاني من هذا البحث. ولم يكتف فرويد في كتابه عن الأحلام بتفسير أحلام المرضى والأصحاء الذين لقيهم فحسب، بل نجده يقدم على تحليل نفسه تحليلا منهجيا بتفسيره لبعض أحلامه الخاصة، وبذلك يكون قد حقق الشعار الفلسفي الأبدى : أعرف نفسك.

1. الحلم :

إن الحلم نص مكتوب بطريقة مصورة، ذلك أنه يتألف من متواليات من الصور المرئية لا من أصوات، إن صورته تشبه إلى حد ما رسوم الكتابة الهيروغليفية أو غيرها من الكتابات المصورة، إنه أقرب ما يكون إلى اللغز المصور (Rébus) منه إلى شيء آخر، يقول فرويد عن هذه المشابهة : «أما محتوى الحلم فياتينا فيما يشبه الكتابة المصورة، كتابة يجب علينا أن ننقل رسومها رسما رسما إلى لغة أفكار الحلم، فمن الجلي أن ننساق إلى الخطأ حين نقرأ هذه الرسوم بحسب دلالتها لا على حسب علاقتها الرمزية، هب أمامي لغزا من الألغاز المصورة : منزل على سطحه مركب، ثم حرف واحد من الحروف الأبجدية، ثم شخص يجري منزوع الرأس، الخ. لقد انزلق إلى النقد معلنا أن هذه الصورة غير معقولة. في مجموعها وفي أجزائها : فما شأن المركب بسطح المنزل وكيف لرجل أن يجري منزوع الرأس ؟ ثم إن الرجل أكبر حجما من المنزل... ولكن من الواضح أننا نوقف إلى الحكم على هذا اللغز حكما صحيحا حين ندع جانبا أمثال هذه الانتقادات الموجهة إلى الصورة في مجموعها وفي أجزائها، وحاولنا بدل ذلك أن نبدل بكل عنصر من عناصر الرسم مقطعا أو كلمة يمكن تمثيلها بهذا العنصر على نحو من الانحاء، فإن فعلنا، فقد لا تخرج لنا منه كلمات خالية كذلك من المعنى، بل قول من أجمل ما جاد به الشعر وأفصحه. والحلم لغز مصور من هذا القبيل، ولقد أخطأ المتقدمون علينا في مجال تفسير الحلم فنظروا إلى اللغز نظرتهم إلى لوحة مصورة، وكان أن بدا لهم - من حيث هو كذلك - خاليا من المعنى، مجردا من القيمة»⁽³⁾.

ان الحلم ليس خطابا موجها لأحد، فالمخاطب في الحلم غائب بعض الغياب إن لم يكن كله، ومن هنا مصدر الغموض الذي يكتنف الحلم «إنه كما يقول فرويد في كتابه مدخل إلى التحليل النفسي»: «لا يقصد قول شيء لأي كان إنه بعيد عن أن يكون وسيلة للتواصل، فهو معد لكي يبقى غير مفهوم، إن المحلل النفسي يفك رموزه عنوة»⁽⁴⁾.

وكما يمكن تعريف الحلم وتحديد ما هيته انطلاقا من طبيعته ومكوناته يمكن أيضا إغناء هذا التعريف بالتساؤل حول وظيفته والغاية منه، وقد أشار فرويد في أكثر من مقام إلى أن الغاية من الحلم هي إشباع رغبة دفينية أو مكبوتة. يقول في هذا الصدد: «عندما تفحص أفكار الحلم الكامنة التي يكشف عنها تحليل الحلم، تبرز إحداها بين سائر الأفكار المفهومة التي يعرفها الحالم جيدا، هذه الأفكار الأخيرة من مخلفات اليقظة (مخلفات النهار كما تسمى فنيا)، ولكن تبين أن الفكرة البارزة إن هي إلا رغبة، من نوع تمنحه النفس، رغبة غريبة على الحالم في يقظته وبالتالي فهو ينكرها في استغراب أو ازدراء، هذه الرغبة هي المنشئ الفعلي للحلم: فهي توفر الطاقة اللازمة لإنتاجه، وتتخذ من مخلفات النهار مادة لها، والحلم الذي ينشأ على ذلك النحو يمثل موقفا فيه إشباع لتلك الرغبة، فالحلم إذن تحقيق للرغبة، وما كان لهذه العملية أن تتم ما لم تهيا لها طبيعة حالة النوم، ذلك أن الشرط الأساسي للنوم هو تركيز الذات في رغبة النوم وانسحاب الطاقة النفسية من جميع مشاغل الحياة»⁽⁵⁾.

وليس إشباع الرغبات الجنسية المكبوتة هو الدافع الوحيد للحلم، فمن اليسير أن نتبين أن بعض الحاجات الغريزية كالجوع والعطش والحاجة إلى الإفراز قد تنتج هي أيضا بدورها أحلام إشباع شأن أي دافع مكبوت، جنسي أو أناني، كما أن الحلم قد يعمد من جهة أخرى إلى المحافظة على سيرورة النوم وذلك بدرء المنبهات الخارجية، باعطائها معنى جديدا أو إدماجها ضمن الأحداث التي تكون نسيجه.

عمل الحلم :

إن كل المحاولات لتفسير الحلم التي جاءت قبل فرويد كانت تركز في تحليلها على المحتوى الظاهر للحلم ذلك المحتوى الذي يبقى عالقا في الذاكرة بعد الاستيقاظ، ولم تعر كبير انتباه للمحتوى الكامن وللأفكار المضمره التي تثوى وراء هذا المعنى السطحي. إن هذه المحاولات لم تكلف نفسها عناء الانتقال من الواجهة السطحية إلى الدهايلز الخفية التي ينشأ في ظلماتها الحلم، كما لم تضع موضع سؤال مختلف العمليات المعقدة التي تتحول

بمقتضاها أفكار الحلم من المستوى العميق إلى مستواه الظاهر والسطحي، يقول فرويد عن هذه القسمة التي يعرفها الحلم : «إن أفكار الحلم ومحتوى الحلم يمثلان أمامنا كترجمتين تؤديان في لغتين مختلفتين معنى بعينه، أو بعبارة أوضح : إن محتوى الحلم يبدو لنا كأنه نقل لأفكار الحلم في نمط مختلف من التعبير، نمط يحق علينا أن نعرف رسم حروفه، وقواعده ونحوه، وذلك بالمقارنة بينه وبين الأصل، إننا نفهم أفكار الحلم من غير وساطة فور العلم بها»⁽⁶⁾.

إن المقارنة بين المحتوى الظاهر للحلم الذي نتذكره والأفكار المضمرة الكامنة المكتشفة بالتحليل أوحى لفرويد بما أسماه عمل الحلم (Elaboration du rêve) فعمل الحلم هو مجموع التحولات التي تدخل أو تدمج أفكار الحلم الكامنة في المحتوى الظاهر، يقول : «وقد أطلق اسم عمل الحلم على العملية التي تحول بمعونة الرقيب الأفكار الكامنة إلى مضمون الحلم الظاهري، وهي عبارة عن معالجة فريدة لمادة الفكر قبل اللاشعورية، بحيث **تتكثف** عناصرها **وينقل** تأكيدها النفسي وتترجم بأسرها إلى صور بصرية أو **تشخص**، تحبك بعملية مراجعة ثانوية خادعة، إنتاج الأحلام مثل رائع للعمليات التي تجري في الطبقات اللاشعورية العميقة من النفس... وهي تكشف فضلا عن ذلك عن عدة خصائص قديمة، مثل استخدام الرمزية (وهي في هذه الحالة ذات صفة جنسية غالبية) التي أمكن منذ ذلك الحين اكتشافها في غير ذلك من مجالات النشاط النفسي»⁽⁷⁾.

يحدد فرويد في هذا الكلام العمليات الرئيسية التي يشتغل عليها الحلم أو يعمل وفقا لقوانينها ويخضع لحكمها، ويمكن إجمال أهم هذه العمليات في ثلاث : التكتيف والنقل والترميز، وهي العمليات ذاتها التي تشتغل عليها النكتة كما سنرى بعد حين.

1- التكتيف La Condensation

عندما نقارن بين محتوى الحلم وأفكار الحلم نلاحظ أن عملية تكتيف أجريت على نطاق واسع، ذلك أن المحتوى الظاهر للحلم أصبح هزيلا مقتضبا مليئا بالثغرات. لقد خضعت المادة النفسية أثناء تكوين الحلم لعملية تكتيف واسعة النطاق حتى استحال الحلم الذي نتذكره إلى نبذة موجزة ممعنة في الإيجاز بالقياس إلى سعة أفكار الحلم وغناها وتنوعها. ومن مظاهر التكتيف في الأحلام حذف بعض الأفكار وإدغام بعضها في البعض الآخر والمزج بين الملامح الحقيقية لشخصين أو أكثر في صورة موحدة «إن تكوين أشخاص الجمع أو

الأشخاص المزيجة هو أحد الوسائل الرئيسية التي يتبعها الحلم في التكثيف فعلى هذا النحو ركب شخص الدكتور م في حلم إرما، فهو يحمل اسم الدكتور م، ويتحدث مثله، ويعمل مثله، ولكن خصائصه الجسمية ونوع مرضه كانت لشخص آخر هو أخي»⁽⁸⁾.

كما يمكن اعتبار إرما في الحلم الذي يحمل هذا الاسم : حقنة ارما L'injection faite a Irma شخصية جمعية ذلك أنها توحى بملامح أشخاص عديدين «إن الشخص الرئيسي في محتوى الحلم هو مريضتي إرما ... لكن الوضع الذي كنت أفحصها فيه بجانب النافذة كان متخذاً من ذكرى شخص آخر، وأعني به تلك السيدة التي كنت أود استبدالها بمريضتي كما تبين في أفكار الحلم، ولايني شخص إرما عن أن يتغير مدلوله... فهي تصوير الطفل الذي نفحصه في قسم الأمراض العصبية وارما تومى بممانعتها في أن تفتح فمها إلى مريضة أخرى قمت بفحصها مرة، وتومى كذلك - لذات العلاقة - إلى زوجتي... كل هؤلاء الأشخاص الذين ألتقي بهم وأنا أتابع «إرما» لا يظهرون في الحلم بأشكالهم الجسمية بل يختبئون وراء شخص الحلم إرما التي تستحيل بذلك إلى صورة جمعية اجتمعت فيها - والحق يقال - شتى الملامح المتناقضة»⁽⁹⁾.

يتجلى هذا التكثيف في أوضح صورته في بعض الألفاظ والأسماء التي تطالعنا في بعض الأحلام، إذ نجد أنفسنا أمام مركبات لفظية غريبة، ومبتكرات لغوية لا عهد لنا بها، عديمة المعنى، أمام كيمياء مقطعية بمعنى الكلمة كما يجب فرويد أن يسمي هذا الادغام أو المزج - كأن ترد في الحلم هذه الكلمة Alcohol holidays بدلا من عطلة الميلاد Christmas holidays، وهي تركيب مزجي لكلمتين هما Alcohol وHolidays.

2- النقل Le déplacement

يظهر أثر النقل في الحلم حين نقف على أن ما كان مركزيا ومحوريا من أفكار الحلم أضحى في الظاهر هامشيا وبعيدا عن الانتباه، والعكس بالعكس. وهذا النقل أو التحويل هو الذي يشوه صورة الحلم ويجعل المحتوى الظاهري للحلم غريبا وبعيدا عن أفهامنا، إن هذا التركيز في المحتوى الظاهري للحلم على الهامشي يفصح عن الضغوط التي تمارسها الرقابة على أفكار الحلم مما يجعل بعض هذه الأفكار ينسحب إلى الهامش. يقول فرويد : «أعتقد أن من السهل علينا أيضا أن نعرف ما هي تلك القوة النفسية التي تفصح عن نفسها في وقائع النقل الحلمي، فنتيجة هذا النقل هي أن محتوى الحلم يفقد شبهه بلب أفكار الحلم، وأن الحلم

لا يعطينا بعد ذلك سوى صورة مشوهة من رغبة الحلم اللاشعورية، وتشويه الحلم ظاهرة عرفناها من قبل، وقد كنا أرجعناها إلى الرقابة التي يمارسها أحد نظامين يعملان في الحياة الفكرية بإزاء النظام الآخر... ومن حقنا إذن أن نفترض أن النقل الحلمى يقع بتأثير من هاته الرقابة، رقابة الدفاع الصادر عن داخل النفس»⁽¹⁰⁾.

3- الترميز La symbolisation

الرمزية بمعناها العام هي عملية استخدام الرموز بصورة منتظمة ومنهجية في نظرية التحليل النفسي، وفي مبحث الأحلام على وجه الخصوص تعني توظيف الرموز لغاية التمثيل على المواد والخبرات المكبوتة، وذلك على نحو يجعل الوعي السوي غير قادر على إدراك معانيها الحقيقية، إن عملية الترميز تمكن المحتوى المكبوت من التملص والافلات من قبضة الرقابة.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن الرمزية ليست خاصة من خواص الأحلام فحسب بل إنها من خواص التفكير اللاشعوري، سواء تعلق الأمر باللاشعور الفردي أم باللاشعور الجمعي، كما هو الحال في أغاني الشعوب والفلكلور والأساطير والخرافات والأمثال والنكت كما سنرى، والحلم - حلم العصابي وحلم السوي - يتوسل بالرموز من أجل تصوير أفكاره الكامنة تصويرا مقنعا، ومعاني الرموز قد تتعدد أحيانا بحيث لا يمكن فهمها فهما صائبا إلا من خلال السياق أو المقام. كما هو الشأن في الكتابة الصينية.

ومن الرموز⁽¹¹⁾ التي يذكرها فرويد في كتاباته والتي يستحيل تفسير الأحلام دون التسليم بها تسليما لا منازعة فيه نذكر ما يلي : فالملك والملكة يرمزان إلى والدي الحالم في معظم الأحيان، أما الأمير أو الأميرة فيرمزان إلى الحالم والحالمة، وترمز إلى القضيب عند الرجال كل الموضوعات المستطيلة والحادة، مثل العصي والجدوع والمظلات والأسلحة وربطة العنق والمحاريث والمطارق، والثعبان، أما اللعب والصناديق والادراج والدواليب والمواقد فتصور الرحم، وكذلك الموضوعات المجوفة والسفن وسائر صنوف الجواري. والغرف في الحلم ترمز في معظم الأحيان إلى النساء. أما المرتفعات والدرجات والسلالم والمسير عليها فصور ترمز للجماع «وليس من الصعب أن يكتشف أساس هذه المقارنة، فنحن نبلغ القمة في حركات متعاقبة موقعه وفي لهت متزايد»⁽¹²⁾. ويرمز للنساء بالموائد والموائد المعدة للطعام، كما يرمز الصلع وقص الشعر وسقوط الأسنان وقطع الرأس إلى الخساء Castration أما

الرحيل فهو أكثر رموز الموت شيوعاً، فكأن الحلم يقول : لاتخف فإنك لن تموت، إنما ترحل. ومن الأحلام النمطية التي تتكرر لدى أغلب الناس حلم الطيران والسقوط في الهاوية، ويذهب فرويد إلى أن هذه الأحلام «تعيد انطباعات من الطفولة أو هي تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً، فمن هو العم الذي لم يعن طفلاً على الطيران... أو لم يتخذ من السقوط مادة لملاعبته، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة، أو يرفعه عالياً ثم يهيء له بحركة مفاجئة أنه يتخلى عنه... والأطفال حينئذ يصيحون طرباً... ويستعيدون هذه الأحلام بعد أن تمضي بهم السنون»⁽¹³⁾ ومن الأحلام النمطية الطريفة أيضاً حلم العراء⁽¹⁴⁾، فقد يحلم الشخص بأنه يتجول في أماكن عمومية دون حذاء، أو دون لباس يستر عورته، والغريب أن المارة الذين يلتقي بهم لا يلاحظون أدنى شيء مما يثير استغراب الحالم ويزيد من خجله وارتبائه فيبحث عن مكان ليختبئ فيه، أو عن لباس يستر به سوائه لكن دون جدوى. إن حلم العراء حنين إلى الطفولة التي لا تعرف الخجل، فهو ينبثق من هذه الطفولة - طفولة الفرد وطفولة البشرية - حيث لا يخلق العراء بالنسبة للطفل والإنسان البدائي أدنى حرج أو ارتباك، بل إن غالبية الأطفال يتلذذون ويثبون ويضحكون لهذا العراء ويميلون إلى استعراض أجسامهم في نشوة.

لغة الحلم :

ماذا عن نحو الحلم، أو لغة الحلم بصفة عامة ؟ كيف يرتب الحلم مقولاته ومعانيه ؟ ما هي نوعية العلاقات التي تربط بين هذه المقولات والمعاني ؟ في محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات يذهب فرويد إلى أن الحلم لا يكاد يعرب عن علاقة من العلاقات سوى علاقة الشرط والعلية، وهو يتوسل لذلك بالتعاقب فإذا جاء حلم عقب آخر، كان الحلم الأول جملة شرط يكون الحلم الثاني جواباً لها. أما سائر العلاقات كالاتصال والنفى والتضاد فلا يكاد الحلم يعرب عنها إذ نجده يغفلها إغفالاً. يقول فرويد «وأما مسلك الحلم بإزاء مقولة التضاد والتناقض فمسلك يسترعي النظر إلى أبعد مدى : فالحلم لا يزيد على أن يغفل هذه المقولة إغفالاً، أي أنه لا يعرف شيئاً اسمه «كلا»، فهو يبدي إثارة خاصة نحو إدماج الأضداد في كل أو تصويرها على أنها شيء واحد»⁽¹⁵⁾. في مقابل فقر الحلم في هذه العلاقات، نجد غنى وثراء بلاغياً لا يتصور في مقولات الحلم، ويمكن بصفة إجمالية أن نعقد مقارنة بين المكنزمات الثلاثة الرئيسية التي يشتغل عليها الحلم وأشهر الصور البلاغية التي تتوسل بها اللغة

فالتكثيف يشبه إلى حد ما الصور البلاغية التي تستند إلى الإبدال والمثابرة والمجاورة. أما النقل فممكن مشابته بالتمليح Allusion والمبالغة Hyperbole، والتلطيف La litote والتناقض paradoxime والسخرية Ironie.

أما الترميز فهو أقرب إلى الاستعارة La métaphore منه إلى وجه بلاغي آخر. إن لغة الأحلام هي لغة اللاشعور. واللغة عموما هي المجال المفضل للاشعور، فهي نموذج لعمل واشتغال اللاشعور وهذا ما عبر عنه جاك لاقان Lacan بقوله: «إن اللاشعور مبني كما اللغة، L'inconscient est structuré comme un langage»⁽¹⁶⁾.

II- النكتة :

من الصعوبة بمكان أن نعطي تعريفا جامعاً مانعاً لهذا المفهوم الملتبس والزئبقي الذي هو النكتة، هذه الصعوبة تمتد إلى الضحك إذ هو الأصل الذي تتفرع عنه مجموعة من المفاهيم كالسخرية والفكاهة والهزل والنكتة، وقد فطن برغسون إلى صعوبة تعريف النكتة وإلى إرتباطها بالضحك حين قال: «إن دراسة الضحك لا تكون كاملة إذا هي أغفلت تعمق طبيعة النكتة، وتوضيح فكرتها، ولكني أخشى أن يكون هذا الجوهر اللطيف هو من تلك الجواهر التي سرعان ما تتحلل إذا عرضتها للنور»⁽¹⁷⁾.

وقبل أن نشير إلى الوشائج التي تربط الحلم بالنكتة، والصلات التي تجمع بينهما، لا بأس أن نقف ملياً عند وظيفة عملية التنكيت ومكونات هذه العملية والشروط السوسيوثقافية لنجاحها، والأقسام الكبرى للنكتة، انطلاقاً من كتابات سگموند فرويد.

1- وظيفة التنكيت :

النكتة ظاهرة اجتماعية تقوم بوظائف متعددة، فبالإضافة إلى التسلية فهي تخفف من حدة التوتر والحقد والعداء، وتسعى إلى نشر الفضيلة وتقويم الاعوجاج، وفضح الانحراف كما تعتبر وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي، إنها استعمال براغماتي للغة. فعبرها يمكن للناس أن يبلغوا مواقفهم ومعتقداتهم ورغباتهم وميولاتهم بشكل ملتو بعيد عن أعين الرقابة، الشيء الذي لن يتأتى لهم بوسيلة أخرى. فعن طريقها يمكن التعامل مع المواضيع المحظورة بسهولة ويسر إنها بفضل مظهرها الخادع وشكلها المحكم الصنع، تخفي أنها تحمل أي رسالة وبالأحرى موضوعاً محرماً، وكمثال على ذلك النكت الجنسية التي تستعمل وسيلة لتبليغ الرغبة

بطريقة غامضة لكنها مفهومة، يقول فاين Fine في هذا الصدد: «التحول من علاقة لا شخصية إلى علاقة شخصية يمكن تسهيله من خلال الفكاهة، فبالتواصل من خلال النكت الجنسية يمكن للرجل أن يقيس رغبة المرأة في اتصال إضافي دون أن يرفض طلبه المباشر»⁽¹⁸⁾ هذا يبين أن الرجال يؤثرون مراودة النساء عن أنفسهن من خلال النكت الجنسية، أي بطريقة ملتوية أو مقنّعة، مفضلين ذلك على الاقتراح المباشر، فالنكتة توفر لهم إمكانية التملص إذا ما قوبل اقتراحهم بالرفض أو بالتوبيخ، كما تمكنهم أنئذ من التظاهر بالخفة وعدم الجدية، أو بعبارة أخرى سيتظاهرون بأنهم يمزحون فقط.

بالإضافة إلى التسلية والتعبير عن الأفكار المحظورة أو المحرمة تؤدي النكتة وظيفية أخرى. خصوصاً النكتة المبنية على اللغة أو اللعب بالألفاظ. يمكن أن نصلح عليها الوظيفة اللغوية من اللغو La fonction phatique، إذ تسهم هذه النكتة في ترسيخ روابط الألفة بين الأفراد. وتساعد على تقوية روابط الصداقة والأخوة، وتزيد من جاذبية المنكت لدى جمهور المستمعين.

2- مكونات فعل التنكيت وشروطه :

المقصود بمكونات فعل التنكيت الأطراف المشاركة في هذا الفعل إذ بانعدامها أو انعدام أحدها يفشل هذا الفعل، ويمكن إجمال هذه المكونات والشروط التي يلزم أن تتوافر فيه فيما يلي :

أ- الإطار The Setting. وهو مجمل الشروط الاجتماعية المرتبطة بالبيئة والمحيط والزمن الذي تلقى فيه النكتة، فلكي يفلح الفعل الفكاهي يجب أن يكون موافقاً للظروف الاجتماعية التي يحدث فيها، والإطار عنصر مهم يحدد ما إذا كانت النكتة مقبولة أم لا، يقول Palmer (بالمر) في هذا السياق «إن قصد التنكيت غير كاف لحدوث الفكاهة، إي يجب أن تفهم، بالإضافة إلى كونها مقبولة، وإلا ستكون تافهة أو صبيانية أو مسيئة»⁽¹⁹⁾.

فالتنكيت ليس دائماً ممكناً وفي جميع المناسبات، ففي المجتمع الإسلامي لا يمكن التنكيت في المسجد وقت الصلاة وأثناء تشييع الجنازة، لكن توجد مناسبات أخرى يستحب فيها التنكيت كمجالس الأصدقاء ومع أفراد العائلة أو أثناء العمل، غير أن عنصر البيئة المناسبة للتنكيت يختلف من ثقافة لأخرى، ففي بعض المجتمعات العشائرية المشهورة يسمح بالتنكيت أثناء الجنازة لتحول هذه المناسبة الحزينة إلى مناسبة سارة. إن المشارك في فعل

التنكيث يجب أن يكون واعيا بالقواعد والشروط التي تحكم زمن ومكان التنكيث.

ب- المشاركون : The participants

كما لا يستطيع المنكث التنكيث متى أراد وأنى أراد، فإنه كذلك لا يستطيع فعل ذلك مع أي كان، فالتنكيث يسمح به أثناء التفاعل الاجتماعي بين الزملاء في العمل، وبين الأصدقاء والمعارف الذين تجمع بينهم مودة، وقد كتب أبت APTE بأن «علاقة يجب أن تؤسس أو توجد بين أفراد يرغبون في الدخول في سلوك فكاهي، وهذه العلاقة يمكن أن تقوم على القرابة أو تقاسم نفس المحيط كالعمل مثلا⁽²⁰⁾» ومن ثم فالتنكيث بين غربيين غير متوقع باستثناء إذا تطورت بينهما أو اصر الصداقة، كما أن التنكيث يكون قويا وناجحا بين الأشخاص من نفس السن والجنس والمستوى الاجتماعي، مع تفاوت بالطبع من مجتمع إلى آخر. غير أن هذه المودة، والعلاقة بين المشاركين لا تكفي وحدها لنجاح هذا الفعل إذ لابد من توافر شروط أخرى لها علاقة بلغة التواصل.

ج- القواعد اللغوية : The linguistic code

لكي تنجح النكتة يلزم أن تتوافر لدى المتكلم والسامع ملكة لغوية تمكن الأول من الإفصاح والتبليغ وتساعد الثاني على فك رموز النكتة وتبين مواطن المفارقة فيها. خصوصا في النكت المبنية على اللغة والتلاعب بالألفاظ : يقول ناش NASH أثناء حديثه عن لغة الفكاهة بأن لها خاصيتين «أولاهما أنه غالبا ما يكون للنكتة مركز حيوي، جملة أو كلمة ما تنصهر فيها مادة النكتة، وتنبعث منها قوتها، وثانيهما أن لغة الفكاهة تلعب غالبا على النقط المزروجة الأصل، على الغموض والالتباس، على الشكل الخارجي والخلفية، على المظهر والحقيقة المقنعة»⁽²¹⁾. والمتلقي لا ينفعل مع النكتة ولا يشعر بالجانب الهزلي فيها إلا إذا كان ذا ملكة وطبع في اللغة التي تلقى بها النكتة، ومن ثم ففهم نكتة واستيعابها يعتبر عنوانا على تملك اللغة، كما أن الفشل في حل رموزها يبين أن المتعلم يحتاج لمزيد من الممارسة وأنه بعيد عن امتلاك اللغة. وبما أن النكت اللغوية تنبني على الغموض في جميع المستويات. المعجمي والدلالي والفونولوجي والتركيبية فإن البعض يرى فيها أفضل وسيلة لتعلم اللغة واكتساب قواعدها.

د- الخلفية الثقافية : The Background Knowledge

ليس امتلاك اللغة كافيا لفهم النكتة بل لابد إضافة إلى ذلك وإلى غيره من الشروط من الاشتراك في خلفية ثقافية، ذلك أن هذه الخلفية المتقاسمة بين المشاركين في الفعل الفكاهي وثيقة الصلة بفهم النكت، خصوصا تلك المعتمدة منها على الثقافة أو ما ينعتة ناش NASH ب in-culture Jokes يقول في هذا الصدد : «نتقاسم الفكاهة مع هؤلاء الذين يقاسموننا تاريخنا. ويفهمون طريقة تفسيرنا للتجارب، هناك ذخيرة من المعرفة والذكريات المشتركة تعتمد عليها النكت مع تأثير لحظي»⁽²²⁾ لهذا فالنكت التي تتضمن إشارات ثقافية أو حضارية يصعب فهمها خارج سياقها هذا من قبل أفراد ذوي ثقافات مغايرة.

3- أقسام النكتة حسب فرويد :

يقسم فرويد النكتة حسب مقصديتها إلى نكتة مغرضة : Mot d'esprit tendancieux : ونكتة بريئة : Mot d'esprit innocent فالنكتة المغرضة هي التي ترمي إلى إشباع الميول والنزعات الجنسية والعدوانية، تلك الميول الأساسية المرتبطة بالحياة النفسية للإنسان. ومن نماذج هذا النوع النكت الماجنة أو الخليعة التي تشبع رغبات منعها الكبت أو كبحتها الاعراف الاجتماعية وحالت دونها والإشباع المباشر، ويذهب فرويد بعيدا في تحليله لهذه النكت حين يقول بأنها تتجاوز حدود إشباع الرغبة إلى الإثارة والتحريض. فهي موجهة في الغالب - حسب رأيه - إلى امرأة بهدف تعريتها وتجريدها من ملابسها بل إن «من يضحك من فحش كأنما يضحك من مشاهدته لاعتداء جنسي»⁽²³⁾.

هناك نموذج ثان للنكت المغرضة يتمثل في النكت العدوانية التي ترمي إلى الهجاء أو الهجوم أو الدفاع هذه النكت تمكنا من أن نسخر من الخصم ونشهر به دون الاعتداء المباشر عليه.

أما النكتة البريئة أو المجردة كما يسميها esprit abstrait فتعتمد على اللغة واللعب بالألفاظ ولا تحمل أية شحنة عدوانية ويرجع فرويد متعة النكتة في جميع الحالات إلى اقتصاد الجهد النفسي : "epargne de l'effort psychique"⁽²⁴⁾.

4- عمل النكتة :

يقسم فرويد التقنيات التي تشغل عليها النكتة إلى ثلاثة أقسام تتطابق تمام التطابق مع المكنزمات التي يعمل الحلم وفقا لها، وهي التكتيف والنقل والترميز أو التمثيل غير المباشر. وهذا التطابق بين هذين النشاطين النفسيين يعكس وحدة المصدر الذي يصدران عنه، فالحلم ينشأ في مختبر اللاشعور إن صح التعبير بل أن تفسير الأحلام «هو الطريق السهل - la voie royale - الذي يؤدي إلى معرفة اللاشعور»⁽²⁵⁾ كما أن نشوء النكتة في خبايا اللاشعور وترعرعها بين أحضانها أمر لا ريب فيه، خصوصا النكت المغرضة، إذ تعرف الصراع نفسه بين النزعات اللاشعورية والكبت، وهذا الصراع عينه نجده في الحلم - إذن فالتماثل تماثل في المصدر وفي طريقة العمل، يقول فرويد عن هذا : «لنتذكر الباحث - في دراستنا للنكتة - الذي وجهنا لنحو الحلم، لقد وجدنا أن سمة النكتة وتقنياتها ترتبط بطرق تعبيرية هي التكتيف والنقل والتمثيل غير المباشر، ووجدنا كميزات لعمل الحلم سيرورات تؤدي إلى نفس النتائج : التكتيف والنقل والتمثيل غير المباشر. أفلا تحملنا هذه المطابقة على الاستنتاج بأن عمل النكتة وعمل الحلم متماثلان على الأقل في هذه النقطة الأساسية»⁽²⁶⁾.

1- التكتيف :

يحصل التكتيف في النكتة بالتركيب بين كلمتين تركيبا مزجيا أو بإحداث تعديل بسيط على الكلمة نفسها، أو بخلق لفظة جديدة neologisme أو بإستعمال نفس الكلمة (أو الاسم) مرة كاملة ومرة أخرى مجزأة بمعنى مغاير يثير الضحك : نَفْطَوِيَّة، نَفْطُ / وَيَّة / Roux/Sot. Rousseau. وقد تستعمل نفس الكلمة ونفس العبارة استعمالا متعددة كما هو الحال في الرد بالمثل reponse du tac au tac. حيث تستعمل في الجواب العبارة نفسها التي ترد لدى المخاطب، والتكتيف عموما هو مظهر من مظاهر الإيجاز والاختصار التي يعكس بدوره الاقتصاد في الجهد النفسي الذي تنهض به النكتة.

من أمثلة الرد بالمثل الذي يعتبر مظهرا من مظاهر التكتيف النكتة الآتية : «هَذَا وَاحِدُ الْمَرَاكُشِيِّ، كَالِّيهِ وَاحِدُ السَّيِّدِ إِلَى مَامْشِيَّتِي فَحَالَكْ غَادِي نُضْرِبُكَ حَتَّى تُدَوِّرْ، جَاوِبُو هَذَاكَ الْمَرَاكُشِيِّ : أَنَا حَتَّى كَاغْ تُدَوِّرْ أَوْ نُضْرِبُكَ».

- الملاحظ هنا أن المخاطب (بالفتح) رد تقريبا بنفس العبارة. فنحن أمام جملة - حتى تدور - استعملت استعمالين مختلفين بدل جملتين مختلفتين تمام الاختلاف. من مظاهر

التكثيف أيضا التأويل الذي تعطيه الأريحية الشعبية لبعض الحروف، فالجيم الحمراء (ج) في سيارات البلديات والجماعات المحلية تعني : جَابَهَا اللهُ، وليس جماعة محلية وهذه النكتة تعبر بذكاء عن تصور أغلب المنتخبين (بالفتح) للوظيفة المنوطة بهذه السيارات.

2- النقل :

تعتمد مجموعة أخرى من النكت على استراتيجية النقل أو التحويل وهو تحويل في مجرى الأفكار ناتج عن التباس أو سوء تفاهم أو تفسير عكسي، وهذا ما نقف عليه في النكت التي تنبني على الحوار، سواء أكان بين الأشخاص أم كان حوار مفترضا بين الكاتب والقارئ، فقد يركز أحد المتحاورين على عنصر من عناصر الخطاب، بينما ينصرف ذهن الآخر إلى عنصر مغاير. وكمثال على النقل والتحويل نذكر النكتة الآتية :

« هذا واحد الشلح دار فُلُوسُو فالبانكا، أو كَيْخَلِيَّهَا حتى كَتَسَدُ وَمِشِي يَزِيدُليها نُقْفَلُ دِيَالُو».

هذه النكتة تحدثنا في مستوى أول عن هذا السوسي الذي يضع أمواله في البنك وهذا سلوك حضاري لا يملك السامع إلا أن يقدره ويحترمه، غير أن النكتة ما تكاد تنتهي حتى يظهر معنى آخر معارض تمام المعارضة للمعنى الأول، يثير ضحك السامع لغرابته وإيحائه بالبخل والسذاجة والخوف على المال. فيحول هذا السامع من الاحترام إلى الضحك.

من أمثلة هذا النوع كذلك ما جاء على لسان أحد الساخرين المغاربة من أن : «أكبر سد في المغرب هو سَدُ فَمَكُّ» فهذا مثال على التكثيف : حيث تكررت كلمة سد باستعمالين مختلفين ومثال على النقل أيضا، إذ ينتقل ذهن السامع بصفة مفاجئة من كلمة سد الأولى التي توحى له بعالم السدود والزراعة، حيث يتوقع أن الخطاب جاد وأن يكون الجواب هو سد بين الوديان، أو سد آخر، غير أن بقية النكتة تحوله أو تنقله إلى معنى آخر ذي إحياءات سياسية هو ضرورة سد الفم أو لجمه في هذا البلد السعيد.

من أمثلة هذا النوع كذلك النكتة الآتية : «هَذَا وَاحِدُ الرَّأْجُلِ دَائِرُ أَوْشَافُ وَاحِدُ الْجَمَاعَةِ دِيَالِ الرَّجَالِ حِدَا وَاحِدُ الدَّارِ، أَوْ هُوَ يَسَوَّلُ وَاحِدٌ : أَشْنُو كَايْنُ ؟، جَاوِبُو بَلِّي وَاحِدُ الرَّاجِلِ مَاتَ لِيَهْ نَسِيْبَتُو حَيْثُ عَضُّهَا وَاحِدُ الْكَلْبِ مَجْحُومٌ عِنْدَهُمْ، أَوْعَاوِدُ سَوَّلُو : وَأَشْ هَدُوكُ النَّاسُ جَاوِعَ إِعْرُو ؟ كَالْيَهْ : لَأَ، جَاوِ يَنْسَلْفُو الْكَلْبِ».

فنحن في هذه النكتة ننتقل من معنى يوحى باحترام الحماة والحرز لفقدائها خصوصا وأن جمهورا غفيرا جاء لزيارة هذا الرجل الذي توفيت حماته إلى معنى مغاير نفهمه من قول المجيب : « لا جاو يتسلفوا الكلب» وهو يوحى برغبة كل فرد من هؤلاء في التخلص من حماته بالطريقة نفسها لا في تقديم التعازي والمواساة.

3- الترميز :

ونجده في النكت التي تعتمد على التلميح والإشارة، أو المقارنة التي تستند إلى الإضمار أو الحذف، وأغلب النكت السياسية والجنسية تعتمد على تقنية الترميز. ويكفي أن نذكر هنا أسماء بعض قيومي الضحك في المغرب الذين ارتبطت النكت السياسية بأسمائهم. حتى أن مجرد ذكر أسمائهم (هذا فلان) يعتبر أفق انتظار يفتح شهية السامع ويثير ابتسامته، ومن هؤلاء من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

ونسوق مثلا لهذا الضرب نكتة من أرض الكنانة تعبر عن عدم اهتمام العامة بأخبار الذين يسوسون أمرهم لأنهم لم يفعلوا شيئا يخلد في الكائنات ذكرهم تقول هذه النكتة.

«سئِلَ مواطن مصري يعيش في الصعيد :

- لماذا لا تعلق صورة الرئيس ؟
- رئيس ... رئيس مين ؟
- الرئيس حسني مبارك
- ما أعرفوش ؟
- اللي جه بعد الرئيس السادات
- سادات ... سادات مين ؟
- اللي جه بعد جمال عبد الناصر
- ومين ده كمان ؟
- اللي قام بالثورة وطرد الملك فاروق.
- الملك فاروق ؟ ولا سمعت عنه ؟
- أيوه ... ابن الملك فؤاد
- الله، هو الملك فؤاد اتجوز ؟» (27)

هوامش

1. تفسير الأحلام، سگموند فرويد، ترجمة مصطفى صفوان، ط. 2 ص : 7.
2. ثلاث مقالات في نظرية الجنس، سگموند فرويد، ترجمة سلمي محمود علي، ط. 2، ص : 11.
3. تفسير الأحلام، ص : 221 - 292.
4. Freud et l'interprétation de la littérature, Max Milner. Sedes, p : 63. Voir Aussi Psychanalyse et Litterature Jean Belle Min-Noel. Que Sais-je ? P. 23.
5. حياتي والتحليل النفسي، سگموند فرويد، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف، ط 2 ص. 51، 52.
6. تفسير الأحلام ص. 291.
7. حياتي والتحليل النفسي، ص. 53.
8. تفسير الأحلام ص. 306.
9. المصدر نفسه ص. 305 - 306.
10. نفسه ص. 320.
11. نفسه ص. 357.
12. نفسه ص. 361.
13. نفسه ص. 397.
14. Voir Freud et l'interprétation de la littérature, Max Milner, P. 56
15. تفسير الأحلام ص. 328.
16. Freud et l'interprétation de la littérature, P. 71
17. الضحك، هنري برگسون، ترجمة سامي الدروبي وذ. عبد الله عبد الدايم، ص. 86.
18. Fine, Gary Alain, Sociological Approaches to study of Humour, in hand Book of Humour Research, Volume 1 P. 167.
19. Palmer, Jerry. Theory of comic Narrative, Semantic and Pragmatic Elements in Humour P. 111 - 126. 2-1
20. Welter nash, the Language of Humour 1985 P. 7
21. Walter nash, the language of Humour 1985 p. 7
22. Ibid, p. 9
23. le mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient - Gallimard, p. 158.
24. Ibid, p. 196.
25. Freud, Psychanalyse, Textes choisies Puf. P. 69.
26. Freud, le mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient, p. 274
27. كيف يسخر المصريون من حكاهم، عادل حمودة، دار سفنكس، ص. 100.